تاريخ الإرسال: 2017/12/20 تاريخ القبول: 2019/01/01 تاريخ النشر: 2018/12/30

واقع المشهد الأدبي العربي في ظل "البلعمة" وشريعة مملكة الحوت
حالة الجزائر

– د.عمار بوساحة

كلية الآداب واللغات

جامعة البليدة 2، الجزائر–

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى الاقتراب حثيثا من واقع المشهد الأدبي العربي و الاجتهاد في استكناه أغواره و سبر خباياه ‘ عبر الحالة الجزائرية برسم صورتها و التقاط خيوط نسجها ‘ و تعقب طبيعة التحولات التي طرأت عليها في ظل تيار العولمة الذي جرفها ‘ أو بالأحرى حلقوم "البلعمة" الذي أوقف نبضها.

فحين يطرح هذا الأدب جانبا القضايا الوطنية و الإنسانية و هموم المواطن و انشغالاته وآماله و أوجاعه كموضوعات جوهرية شكلت نسقه و وهجه و مادته ‘ و يندفع اندفاعا محموما إلى المرابطة في رقعة التفاهات

والشكليات ‘و يسقط في الترف اللغوي و اللغة البهلوانية.يصبح الاستلاب و الاغتراب الإراديان هما ميسمه ‘متلفعا ببرقع مجاراة العصر و مسايرة هوس الحداثة ‘ فنكتشف بذلك تعطل قدراته عن الإبداع و الإقناع ‘

وفقدانه لهويته و أصالته ‘ و انقطاعه عن جذوره التي غدته و ارتوى منها ‘ و طلاقه النهائي مع قارئه العادي و النخبوي سيان .تلك هي فجيعته التي انتهى إليها تحت فكي البلعمة. و ليس مفاجئا حينها أن يتحول المدى الأدبي في زمن هذه التحولات الغريبة‘ انطلاقا من نقطة الانسلاخ من الجلد إلى نقطة تغيير مداد القريحة و الضمير‘ إلى مجرد سفسطة و شقشقة متعالية عن واقعها أو هاربة منه في لحظة الهزيمة‘ المتدثرة بمأساويتها كصيغة حتمية لقابلية

الاجتياح و شهوة التماهي و الذوبان ' بعدما كان معمدا بدم الشهادة هذا الأدب .

Abstract

This paper seeks to approach to Arab literary scene, and explore its hidden qualities through the case of Algeria by depicting its image and tracing the changes it had undergone within the trend of globalization snifted it.

When this literature leaves away human and national issues and the preoccupation of the citizens as essential themes, which form its subjects if falls into formalities and paltry maters then combination will become as characteristic under the guide of modernity.

Here we discover its inability is create and persuade readers also it losses the identity and original and its separation from its roots nurtured it this is its tragic fate by reason of globalization so it is not surprising to find that is subjects are now nonsense and escapism to tragic reality because it submission to the other forgetting its past as a literature martyrdom.

هل بات ملحا على العصر الحديث، تدارك تخلفهم وتقهقرهم بتبني الفكر الليبرالي المتوحش، وتعاطي إيديولوجية الرأسمالية، عبر امتطاء صهوة حصان العولمة الذي تقوده أمريكا؟ ذلك هو السؤال الشائك، في موسم الوهم السائد بأن

كل من لم يركب هذا الحصان سيلفظه التاريخ، وسينأى عن الركب، ليضطر في آخر نقسه امتطاءه ولكن ولات حين ممتط.

هذا الوهم المكشوف يراد تكريره عبر إيهام شعوب المسكونة، بأن زمن الإيديولوجيا قد انتهى، في الوقت الذي تسطع فيه حقيقة الترسانة المادية الأمريكية، كتحصيل حاصل للفكر الرأسمالي الكينزي، الذي تدأب على تعميمه على باقي الكوكب الأرضي، تحت مصطلح مراوغ ومغالط. إنه العولمة، بوصفه مفهوما يرتبط بنشاط رأس المال على مستوى العالم، والرغبة الجموحة لأرباب الشركات الكبرى في البحث عن أسواق خارجية لتسويق فائض الإنتاج[1]. وفي كل الأحوال فهو الشق العملي لفكرة "نهاية التاريخ" والتي مفادها أن النموذج الغربي الرأسمالي هو قدر البشرية المحتوم، رغم الحقوق التي تدعي أمريكا صيانتها والذود عنها[2]. والأنكى من ذلك فهو مشروع هيمنة وتسلط، قبض على تلابيب الآخر، وسعي محموم لإلغائه وشطبه رأيا وقناعات، فكرا وتوجهات.

على منعرجات اكتساح الزمن الأمريكي للعالم، وبتحول الكوكب الأرضي إلى سوق كبيرة، أو بالأحرى إلى "غوانتانامو" مسيج بآخر صيحة الأمركة، وبأعلى تقنياتها، يتراءى إنسان ضفتنا فاقدا صحوه ووعيه، مكتفيا بالتفرج على أبناء الضفة الأخرى الرافضين لنهاية الإيديولوجيا، المجبولين من طينة المقاومة وهم يتصدون إلى حد الشهادة، لعولمة البؤس والإبتلاع الأمريكي للعالم. حينها لا يسعنا إلا أن نصاب بالدهشة، إزاء تحرك مثقفينا حركة لا تعي موقعها، داخل هذا الاتجاه. ونلاحظ أنها ترتسم في شكلها المنسجم معه إلى حد الهرولة فيه ، والتهليل له أو تقف على مدخله تائهة حيرى، بعد أن ضيعت معالم الطريق المعبد بالمبادئ والمواقف والقناعات، مباركة بذلك الاعتقاد التضليلي الزاعم بأن عصر الإيديولوجيا قد انتهى، وكأن التاريخ قد انتهى فعلا عند أقدام دولة، لا تعير للقيم الأخلاقية والمبادئ أنى اعتبار، ولا يهمها من هذا العالم ألا

أن يتحول إلى سوق استهلاكية كبرى للمنتوجات الغربية في شقها الاقتصادي والثقافي سيان[3].

الانفتاح على الآخر، والإقرار بمبدأ التنوع والاختلاف، وقبوله والتعايش معه، تقول به العالمية l'universalisme لا العولمة mondialisation التي هي مرادف لتذويب إنسان المسكونة في العقل الأمريكي. إذ الانفتاح على العالم وعلى ثقافات الشعوب أمر مستحب ومطلوب، لما في ذلك من إثراء للثقافة المحلية، وتعزيز للهوية والشخصية الوطنية وعدم الذوبان في الآخر. وأما أن يتحول العالم إلى قرية يذوب فيها الكل، فذلك ما يتنافى مع سنته تعالى في خلقه "ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين".

العالم لن يتحول إلى قرية قط، وستبقى السماوات والأرض، والبحار والمحيطات، والجبال في مكانها لن يتغير شكلها، ولا لونها، رغم عبث الإنسان المتوحش بها. والحاصل أن عقلية هذا الإنسان هي التي تغيرت وتضاعفت شراهته للكسب، والاستحواذ على خيرات العالم باكتنازها أو تبذيرها، وحرمان الآخر من حقه في الحياة بتجويعه، وممارسة عليه شتى أشكال التسلط والسيطرة والقهر، من خلال سن له "قوانين" مستوحاة من شريعة الغاب، ومملكة الحوت. يعاقب بها كلما هز رأسه إلى أعلى أو أبدى نوعا من العصيان والتمرد على هذه "القوانين".

ينبغي الاعتراف بأن العالم اليوم، على وشك انهيار ثقافي شامل، من جراء ثقافة البلعمة الغازية المدججة بالغة الصورة، ومعطيات التكنولوجيا المتقدمة جدا. وهو أمر لا يهدد تنوع الثقافي الذي تعتمد عليه الحضارات الإنسانية منذ فجر تاريخها فحسب، بل هو تدمير ساحق للهويات الوطنية، لصالح هيمنة نمط ثقافي واحد، هو الثقافة الغربية الدائرة في فلك مراكز المال والأعمال العالمية التي لا يعني مطلقا أن تبنيها أو حتى الاغتراف منها،

سيؤدي إلا تطور للبنى الاجتماعية والثقافية للبلدان المهيأة لاجتياح العولمة لها، بل العكس هو الذي سيحصل متمظهرا في تطور تخلف العقلي والوجداني، واستفحال البؤس الروحي والمادي، وانحسار الدولة بمفهومها ومقوماتها وطابعها، وتحولها، إلى كيان خدماتي عاجز عن تحقيق استقلاليته، ولا يتجاوز دورها طابعه الريعي في أحسن الأحوال والانشغال بتحريك آلة الانتخابات التي لا تنقطع، إضفاء لشرعية عليها ككيان وعلى ديمقراطيتها المزعومة.

ولا شك أن الكتل الاقتصادية والسياسية الكبرى وشبكات المافيا العابرة للحدود والأوطان، المدججة بترسانة الاكتساح والاختراق، العاكفة على تسويق اديولوجية العولمة والترويج لها، وتضليل الناس وإقناعهم بتبنيها وإيهامهم بجدواها. قد جندت لهذه العملية عبر العالم جيشا من المثقفين الأبواق ومن حملة الأقلام المأجورة كأيدي عاملة رخيصة[4]. مسخرة لنقل الإطار النظري الإيديولوجي للعولمة إلى إطاره الإجرائي التطبيقي كبلعمة في حيز الثقافة، وعلى وجه التحديد في محورها الجوهري، ألا وهو الأدب. باجتثاث منه نسغه الاجتماعي، وجوهره الإنساني، وطابعه التمردي، ورسالته التثويرية التحريضية، ودوره التعبوي ووظيفته في نشر الوعي الحقيقي، وتبصير الناس بواقعهم وبالحركة التاريخية في حيز التمثل الجدلي لهذا الواقع، لا في حيز المماثلة الطوباوية. إن إفراغ الأدب من مضامينه الاجتماعية والإنسانية، وتحويله إلى أشكال خاوية يطبعها التقعر والتهويم والتعابير الخزعبلاتية والتراكيب البهلوانية، قد أوجد حالة الهذيان والهراء واللغو، والجعجعة والمهاترات التي هو عليها راهنا في الوطن العربي.

هذا المشهد الكبير بقتامته، تشكلت في ظلاله وألوانه، ملامح صورة الأدب الجزائري اليوم، باعتباره لا يعكس هويتها الوطنية ولا ينطلق من خصوصياتها وظروفها الحياتية، وترابها ومناخها وواقعها. إذ هو أدب يسهم في انهيار القيم الاجتماعية وإشاعة الخذلان وروح الانهزام، وإحكام الهيمنة على

روح الإبداع بتغريبه، ومسخه وتمييعه، وخنقه وإفلاسه، كما يثبت ذلك النتاج الذي يسوق إلى القارئ كبضاعة محتفلة باللغة البهلوانية، والنمطية الاجترارية، والثقافة الببغائية الناجمة عن الانبهار بالوافد وقابلية الذوبان والانبطاح، وشهوة الاجتياح والاكتساح من قبل الآخر، والانصياع والخضوع له.

ذلك النتاج البضاعة إذن، لم يتخل عن مضمونه ويأخذ شكله الحالي المتداعي، بقرار سلطوي أعلى، وإنما جاء بفعل حب التماهي والانسحاق، وتعبيرا عن مركب الدونية وتكريسا لثقافة التبعية للآخر والسير خلفه. مقيما في دائرة محكمة الإغلاق من الإسفاف، والهزال والشحوب. مقتربا من لحظة احتضاره، متنائيا عن الحركة الاجتماعية التي صهرته، والمواقف الإنسانية التي عمدته بدم الشهادة طيلة تاريخه الطويل الحافل بالإنجازات، لحظة زج فيها عشرات الأدباء بأنفسهم في قلب القضية الوطنية، وخاضوا معركتها المصيرية فنالوا شرف الشهادة، ساكبين دماءهم في محابر أقلامهم، باعتبار الكتابة في مفهومهم فعلا واعيا يتوحد فيه الفكر بالممارسة.

من محمد العيد آل خليفة الذي ألقي عليه القبض سنة 1954 وسجن ثم فرضت عليه الإقامة الجبرية ببسكرة إلى غاية 1962. مرورا برضا حوحو الذي استشهد في مارس 1956، ومحمد الأمين العمودي، الذي استشهد في أكتوبر سنة 1957، والربيع بوشامة الذي استشهد في ماي 1959 بعد تعذيبه، وعبد الكريم العقون الذي استشهد سنة 1959،إلى مولود فرعون الذي استشهد في 15 مارس1962[5]. وأخيرا محمد بودية الذي استشهد بباريس في 29 جوان 1973 معانقا القضية الفلسطينية. تأخذ الكتابة نكهتها الخاصة شاقة دربها العسير كلحظة وعي حقيقية للذات والموضوع، كشرف واستشراف، كنبوءة وشهادة، ولا تتأسس إلا متصدية للمسخ والتذويب، منافحة عن الهوية والشخصية الوطنية، رافضة الفرنسة والإدماج. لنكتشف اليوم في زمن الردة والمفارقات، والمنطق المقلوب، أن الأمركة أصبحت هي عملة الكتابة الجزائرية

المتداولة، كمرادف طيع للميوعة والتحلل والانفصال عن محيطها. بوصفها فعلا ليس إبداعيا، ومعزولا عن محيطه وعن الحركة الاجتماعية التي يتنفس هوائها. إنها كتابة قائمة على صياغة الفكر الليبرالي المتوحش، قوامها الاستهلاك والتلقف ومهادنة السائد، واقتناص الريع، ومباركة الاهتراء السياسي والاقتصادي الذي ابتلعها وأقعدها عن اكتشاف الواقع، وأطرافه الفاعلة فيه والعلاقات التي تحكمه، للتموقع فيه، وخوضه تفسيرا وتغييرا، بفضل ما أغدقه عليها من هدايا وهبات وعطايا وإعانات، تحت غطاء المسابقات ناهيك عن المقرات. وبدل مواجهة الواقع وملامسته أسهمت في إعدام هذا الواقع على أرضيته نفسها، بالهروب منه وتشويهه وتحريفه، وبعدم مكاشفة الذات والعالم حيال طبيعة الانهيار والتدمير، التي عرضت نفسها لها من خلال الاحتفاء "الكرنڤالي " باللغة البهلوانية، والإمعان في الاهتمام بالتفاهات والشكليات. وهو الأمر الذي أوقعها في التشضي والانشطار والهشاشة، تحت وطأة إيديولوجيا "البلعمة"، فاقدة بذلك انتماءها ووهجها، ثباتها وتوازنها. وبعدما كانت ضميرا حيا معبرا عن روح المجتمع، أضحت ضميرا ميتا بفعل الاختراق والاجتياح التي استكانت إليها، تحت وقع الترديد الببغاوي للنتاج الغربي، الذي أعاقها عن تشكيل رؤيتها، وتفتح آفاقها الخاصة بها، واكتمال دورة نموها ونضجها، وخلق شروط حداثتها، النابعة من رحمها، المرتوية بأصالتها.

لن يستطيع أحد أن ينكر الدور البالغ الأهمية الذي اضطلع به الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، في إيصال الصوت الجزائري المخنوق إلى المحافل الدولية، والتعريف بالقضية الجزائرية إبان الاحتلال. رغم اتخاذه من الفرنسية أداة تعبيره وتصويره، لأن هذه الأداة لم تحجب عنه رؤية الواقع الذي عراه نافذا فيه، ارتكازا على هذه الأداة التي حولها إلى سلاح، وكسر الأصول جميعها. حينما لم يذب في فكر وحضارة لغته، بل تحول إلى نمط بركاني من فن القول، خارجا من أعماق التربة الجزائرية إلى سطحها الخارجي، دون أن

يتجرد من روحه لكي يصبح ظلا لغيره. وربما كانت ثقافة كاتب ياسين، مالك حداد، محمد ديب، مولود معمري، مولود فرعون، حاج علي بشير وغيرهم كرعيل أول وبعده نور الدين عبة، رشيد بوجدرة ، رشيد ميموني، جمال عمراني، آسيا جبار، صافية كتو، أحمد أزغار، عائشة لمسين، مولود عاشور، جميلة دباش، زوليخة بوقرت، زهرة ضريف، ليلى صبار، نادية غالم وغيرهم[6]. هي ثقافة الانسجام مع ذاتها وواقعها، الذي شكلت لغتها منه وشكلته بها وفق رؤية تمتد إلى حيز إدانة القوى الاجتماعية المهيمنة، والعمل على خلخلة البناء الذي تحتمي به، اعتمادا على هذه الأداة التعبيرية وباستحضار الطرح المتجذر داخل أرضية الوعي الماثل، لا الوعي الزائف المماثل. ذلك الوعي المفضي إلى امتلاك مقومات الكتابة الوطنية، وسماتها الفنية الرافضة للممالأة والتواطؤ، والتملص من مسؤوليتها التاريخية والإنسانية وراء التكويم التلفضي، وتراكم المفردة في صياغة كتابة الوهم والعدم.

فكاك هذه الإشكالية هو الذي يخلص بنا إلى الوقوف على خلفية انقلاب الأدب المكتوب بالعربية على نفسه، كمنشئ فوقي وطبيعة علاقاته بالبنى التحتية منذ منتصف الثمانينيات إلى حد الساعة، بفعل الانهيار الذي أحدث تدهورا شاملا، ونزيفا حادا في بنيته. وجعله يتموضع داخل صحراء الجدب والعقم والإفلاس، كصورة مشوهة لهوس الحداثة الغربية، التي أحالته فلكلورا باهتا، يفتقد لمصداقية الكتابة الفنية، وأصولها العربية ومضامينها الإنسانية. بعد أن سجل حضوره في الفترة السابقة عنه كرؤية متسقة مع حيزه الاجتماعي، ووجوده الإنساني.اغتسلت فيه التجربة بوهج واقعها مستوحاة جزئياته وتفاصيله وطوارئه وإنجازاته. راسمة أفق النص الإبداعي، المضمخ بالغة التغيير والاستحداث والانبعاث، دون أن تسقط في فجاجة الاحتواء والتدجين. فقد شكلت طقوسها وشعاراتها وواقعها وانجازاتها، مرآة انعكس عليها إيقاع الحاضر المتسارع على مقترب إسار الماضي العالق. كأن هذه التجربة

تفتح آفاقا لا متناهية على راهنها، دون أن تغلق كوة أمسها. إنها كتابة التحولات التي انتقلت من موقع الشاهد على عصرها، إلى خندق الاستشهاد معه وفيه، رغم ما شاب بعضها من استعارات جاهزة، لا تتناسق مع ذوات أصحابها وأدواتهم. مدفوعة بركوب الموجة في مدها القوي، وبتقنية عدم السباحة ضد التيار الجارف، فكان محكوما عليها الانفتاح على كل الاحتمالات، للانقلاب على نفسها بالتواطؤ والركون إلى الصمت، والانزياح عن المعركة التي أقحمت نفسها فيها، أو النكوص على عاقبها بالانسلاخ من الجلد، والتنكر لماضيها وتدنيس اليافطات التي حملتها، وعدم التورع في الدوس عليها. فلم تبق من أوعيتها حتى الصراخ الإيديولوجي الذي سوغه ركوب موجة الخيار الثوري، الذي ستنزل منه بسرعة فيما بعد، لتأخذ لها مكانا في قطار العولمة السريع، الرابط بين محطة وجدانها، القابل للاكتساح والاجتياح، ونقطة ضميرها القابل للتأجير، وتغيير ردائه في كل فضل، كمؤشر حقيقي لكتابة المجاراة والشعارات، وليس المواقف والقناعات.

على عتبة هذه الكتابة نقف على التجربة الروائية والقصصية الرائدة لعبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار في دورتها المنسجمة مع محيطها النضالي، والسياسي والاجتماعي. اعتمادا على المباشرة والتقريرية والهتافية أحيانا، المبطنة بلفائف الرمز والأسطورة حينا. تمثلت أهم إنجازاتها في عدم السقوط، في فخ الشكلية والتهافت على التلفظية والمعاضلة والسديمية، وفي قدراتها على إنتاج الواقع عبر اللغة الروائية في حقل تواصلها الاجتماعي، كممارسة حية للرؤية الجدلية واستشرافها لعتبات الاقتراب من نبض الممارسة الحية للخيار الثوري وقدراته على تشكيل بنى الواقع الاجتماعي والسياسي، كجزء من عملية صياغة الواقع كليا وجذريا، راهنه ومستقبله، في توتراته وانزياحاته المتواترة، الموغلة في النأي عن البنى المهترئة ومحاولة القبض على كل ذلك داخل النص الجديد متحفزا باستيعاب الموروث الأصيل، والمحدث النابض على كل

مستوياته، والتوليف بينهما في فضائه بما سمي بالإبداع الثوري، إسهاما في إرساء مرتكزات المجتمع الجديد، وهدم القيم الكابحة لتقده وسطوعه، وإيصال إلى العام صوت الجزائر المبدد لحدسها الطويل،عبر الحرف الضوء لتجربة المعاناة بإشرافاتها وإشعاعاتها.

تطور المجتمع اقتضى بالضرورة تطور الكتابة وتفاعلها مع هذا التطور نفسه، وسيرها المنطقي في موكبه، بصياغة بنيته الخصبة، القادرة على التجدد والاستمرار داخل حركات دلالات النص، المفتوح على القيم الاجتماعية والإنسانية، وإعادة تشكيلها بما يعبر عن الرؤى الموجهة للفعل الإنساني نحو تداعياته الإيجابية الجريئة ، المرتوية من الواقع الحياتي اليومي، بتغضناته، والمعرفة الإنسانية والاجتماعية بإنجازاتها الحضارية.

وسوف نكتشف وأن توقف حركة هذا المجتمع عن الانزياح والتحول، والانغلاق على نفسها داخل علاقات إنتاجية باهتة، سيصنع ارتماءها في بنية إنتاجية لاعقلانية، مؤسسة على اصطناع التحولات الكبرى التي فرضتها القوى الرأسمالية المهيمنة على العالم، بالتحالف مع القوى الداخلية المهيمنة على الساحات الوطنية، المهيأة للاكتساح، المترعة بقابلية الاختراق في بعدها الازدواجي، المتعلق ببنية الاقتصاد والاجتماع وببنية الثقافة، بما سمي بعصر الانفتاح الذي لا يعني كنهه في الحقيقة، إلا عصر الرّدة، والثورة المضادة، وفتح الحدود للمد الرأسمالي العالمي بنمطية إنتاجه وعلاقاته الإنتاجية، والتي راحت الطبقة السائدة تتموقع داخل آلياتها وتوفير كتلة القوى الموضوعية لها، والتي ستتكاثر وتتنوع للاضطلاع بمهام إنجازها داخل الدولة الريعية كأهم غاية إشر أبت إليها، وسخرت لها كل الوسائل والإمكانيات لنشأتها.

مع مطلع الثمانينيات دشنت الجزائر رحلتها في عالم التيه والضياع والشرود، قبل أن ترتسم ملامحه كعولمة، مادام أن ملامح الثورة المضادة قد ارتسمت معالمها، وتشكلت كحقيقة شاخصة في الحياة السياسية والاقتصادية

والاجتماعية والثقافية، متمظهرة في إجهاض المشروع الوطني التحريري على كل المستويات، والانقلاب على المكتسبات والإنجازات الثورية التي حققتها السياسة الرشيدة والاقتصاد الوطني المعتمد على القطاع العام، كصمام أمان لاستقلال القرار السياسي للدولة وسيادتها. وذلك بالعمل على تصفيته وتفكيك آلياته وبنيته، تحت ذريعة الشروع في هيكله ثم إعادة هيكلته ومراجعة الأطر القانونية التي تحكمه والتي لم تكن تعني إلا التراجع عنه، وعن سياسة التصنيع، والإنتاج لصالح الاستهلاك، تحت وطأة القهر والإقصاء الذي تعرضت له القوى الوطنية الطليعية، والمستنيرة من قبل القوى الطفيلية الانتهازية الناشئة، النافذة من جهاز الدولة، التي لا تدين بأي معتقد ولا تنتمي لأي فكر واتجاه إلا لمصالحها المتشابكة مع مصالح اليمين المتململ، المنهمك على عزف سيمفونية "إلى اليمين در" وهو الأمر الذي جعل البلاد تختار لنفسها وضعية الانبطاح، تحت غطاء الانفتاح. رابطة دواليب الاقتصاد الوطني بقاطرة التبعية للدوائر الرأسمالية العالمية.

وكان من المنطقي في موسم المراجعة الشامل، أن تتراجع عن النمو الاقتصادي والاجتماعي وتقع تحت طائلة الديون، وما ترتب عنها من جدولة وإعادة جدولة، وما تبعها من تخفيض لقيمة العملة الوطنية عدة مرات وبنسب مختلفة، كل ذلك أدى إلى مظاهرات 5، 6 أكتوبر 1988 كنتيجة حتمية منتظرة للوضع الكارثي الذي آلت إليه البلاد، واستشراء حدة الصراع الطبقي والاجتماعي، تعبيرا عن الخيبة والإحباط واليأس في نفوس الجماهير، ورفضا للخيانة واغتيال الثورة ووقف مدها، ومصادرة الحلم الجماهيري الذي اغتسل بدمها وتبرعم وتفتح في ظل إنجازاتها.

ضمن هذه الدائرة المغلقة التي أحكمتها الطبقة الحاكمة على نفسها وعلى رعيتها، لم يكن أمامها إلا أن تتفطن للخطر الكبير المهدد لوجودها ومصيرها ومصالحها، فلم يكن أمامها إلا التعجيل بتدارك ذلك عملا على صيانتها

والسهر على استمراريتها، مستعينة في هذا الشأن بالقابلة الغربية، كي تشهد على مرحلة مخاضها العسير ولادة وليد اسمه "الديمقراطية". تكفيرا عن ذنبها عندما دخلت في شراكة مع الرأسمالية العالمية، واليمين الداخلي والذي سيتكتل في أحزاب سياسية تدين بالإديولوجيا اليمينية وتتغذى منها، وأما المطالب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي استشهدت من استشهدت من أجلها الحشود الغاضبة فستبقى عالقة إلى الأبد.. إلى أن يطلع بومدين المنتظر.

هذه البؤرة التي تشكلت في ضلها ضلال العشرية السوداء بقتامتها هي التي سيخرج من عباءتها التطرف الديني ويفضي تلقائيا إلى العشرية الحمراء.. إلى المقصلة.. إلى اقتصاد السوق.. إلى الكارثة.. إلى سلطة الخطاب الديماغوجي الممعن في تسويق المشروع الرأسمالي البرجوازي العالمي في مختلف حقول الحياة المادية والروحية، وتغييب الرؤيا ومصادرة الوعي، وانحسار مهام الدولة في خدمة الطبقة السائدة والقوى المستغلة المستلبة، المهيمنة على قدرات البلاد والعباد، تأمينا لمصالحها واستمرارا لاستحواذها واحتكارها لثروات البلاد، بالتحالف مع الخصم الطبقي للجماهير وحرصا على تنفيذ توجيهات النوادي والمراكز الرأسمالية العالمية، وتسويق ثقافة التلقف والفكر التلفيقي التضليلي لحقيقة الوضع، وأطرافه، وما يشوبه من تناحر اجتماعي واهتراء سياسي، كمحصول حاصل لتواطؤ الدولة الريعية مع المصالح الطفيلية لهذه القوى المتحالفة مع كتلة الرأسمال العالمي المحلي، كتركيبة اقتصادية واجتماعية متعاظمة، تضمن لها دوام الهيمنة، بامتداداتها الكولونيالية، كمعادل موضوعي لاستعمار البارحة –اليوم–.

في غمرة هذه التحولات المتواترة، والإنزياحات المتسارعة والتصدعات المتعاقبة، نقف على نقاط التقاطع والتمفصل للكتابة في علاقاتها المتسقة ببنيتها التحتية، المتهرئة سياسيا واقتصاديا، رغم ما يبدو عليها من حداثة زائفة. فتنطلق في اتجاهين عبر خط واحد، سيفقدها كل مشروعيتها حين تصبح مجرد

أصداء متناغمة مع صوت الاهتراء الناشز، أو تفقد صوتها كلية إلى حد الاحتضار والتلاشي معبرة عن العجز الحاصل بشأن منطلقاتها، وهشاشة أرضيتها الفكرية التي تمفصلت عن بنيتها. فلا تحقق إنجاز الثبات والتموقع الحاسم داخل حركاته الموجهة له نحو الانبعاث والانبلاح. فتبقى مرابطة عند تخوم التقعر بنبرات الحياد والخفوت، وتبني لنفسها سدا مهلهلا، يموقع حضورها في خانة الغياب . فبدل أن يحول الوضع الكارثي قدراتها إلى إنفجارات، تلجأ إلى التوقف عن الحركة والنبض وتتبلور داخل ظاهرة الخسوف، صانعة أمامها إرث الهزيمة والخيبة والانكسار وتصبح ميتا في جسد الكتابة الميتة.

إن أدبا يتراجع عن إنجازاته ويتنكر لها، وينقلب راهنه على ماضيه، ويتداعى في مدى الأشباح، وعوالم الفجاجة والسكون، ولا يتمرد على حالته، ولا على محيطه، لهو بالأدب الميت كلينيكيا وتاريخيا بعد أن أصابه وباء التلقف والاستنساخ، والعقم والاستلاب، ففقد هويته ورواءه وماء حياته، واستكان إلى الجعجعة والخواء والتلفيق. وكأن هؤلاء الكتبة يعيشون على سطح كوكب آخر، وتحت سماء أخرى يستلهمونها الأوهام فتلهمهم، ويستمطرونها الخزعبلات فتساقط عليهم مدرارا، وهم عندما يتمادون في استيراد أزمات الأدب الغربي وترديدها بشكل ببغائي، والارتداد إلى الماضي الكالح بإعادة إنتاجه واستحداثه، تحت وطأة هوس الحداثة. إنما يسهمون في نسج صورتهم ككائنات هلامية، وأصداء هيولية، لا كأصوات مدوية للتحرر والعدالة والقيم المتوحدة بالإبداع في منابعه الفكرية الصافية وأبعاده الإنسانية. الأمر الذي يقف وراء تلبسهم بوحشة هذا العصر ومعايشة غرابته، وعيش غربتهم فيه، وعدم الجرأة على مساءلته فنيا ومضمونيا وغرس الريشة فيه بغية اكتشاف أسرار بؤسه وقتامته ولا إنسانيته. مسخرين أنفسهم ليس لخدمة الطبقة المهيمنة بالسكوت عن تعريتها فحسب، بل مكرسين أقلامهم سدنة لطبقة "الجرذان" المندفعة من صديد قنوات الخوصصة، ونهب المال العام، اقتسام الريع عبر تأمين لها راحة النفس والضمير، وطمأنينة

المضجع بفعل اللاكتابة أو كتابة الوعي الزائف المزيف، المحرف لحركة التاريخ البشري، وصيرورته كقطبية قائمة على الجدل الحاصل بين وعي الكائن الصاحي المتململ، والذات المستلمة الساكنة دوما. وعندما يسكن التاريخ، ولا تتحرك عجلته يصبح بإمكان الطبقات التي اعتلت هرم المجتمع، أن تهنأ بانقشاع الغنام ولطافت المناخ، كي تمارس هويتها في الجمع والمنع، والزجري والقهري، تحت سدول هذا الليل الطويل في انتظار الحرف المضيء ونور الكلمة الذي سيسطع ليبدد غشاوة الظلم والظلام.

في هذه العتمة يصبح النص المشحون بالومض والنبض، هو دليلنا وفتيلنا، لنبحث في قلق عن قسامته وأمدائه، فنراه محبرا بدم الشهادة ومتلونا بالمأسات، متلبسا بأشلاء شهدائه فمنهم من قضى محبه: الطاهر جعوط، يوسف سبتي، الهادي فليسي، عبد القادر علولة، بختي بن عودة وآخرون... ومنهم من كان على مقربته لولا أن القضاء والآجال بيد الله: رشيد بوجدرة، مراد بقطاش، واسيني الأعرج... وأما عمار بلحسن، عبد الله بوخالفة، صالح زيد، فقد اختلطت أرواحهم بكتابتهم، بمأساتهم. فاستعجلوا الرحيل عن هذه الفانية وارتحلوا دون أن يسألوا أحدا، ولكن الأدب سيضل يسأل عنهم،لأنهم كانوا مسؤولين أمامه.

لقد أدرك هؤلاء الأدباء الشهداء الموتى والأحياء، أن التخلي عن رسالتهم وعدم الاضطلاع بمهامه في هذه المعركة الضارية، هو خدمة مباشرة للجلادين والطغاة وأعداء الإنسان ومعاضدة للطبقة الجائرة، في تحصين ترسانة جورها، بفعل تحريف فعل الكتابة عن حطه ومساره الحقيقي، أو تشبيه التجربة الأدبية وتحويلها إلى طلاسم. لكونها الوجه الآخر لتواطؤ، والضلوع والاستنكاف عن استنطاق الواقع، والانكفاء في شرنقة العدمية، والسوداوية والضبابية والسديمية. وهو الأمر الذي يجد القارئ فيه نفسه أمام نمط كتابة اللامضمون واللاموقف. أمام هياكل خاوية وأشكال فارغة، مؤسس على شقشقة الفارغة. كصورة لتأزمها

وانسدادها، وانفصالها عن المتلقي النخبوي والعادي سيان. أو بالأحرى تطليقه لها في لحظة يأسه من استعادة صوابه، وقناعته بعدم جدواها ووجوده فيها. عندما تقرأ بين سطور هذه الكتابة تجد نفسك على حافة الومض الإبداعي، وفي صلب الكتابة المعتوهة التي فقدت ضوابطها وأصولها وعناصرها الفنية. فتأتي وكأنها تكويم مأساوي للمفردة، انتحرت فيه اللغة ولفظت أنفاسها، بريقها وإيقاعها، وتصبح القراءة في حد ذاتها معاناة، لفعل المعاناة الغائب فنيا، والذي تبحث عنه في دلالة الكلمة وسياقها، في صورتها ووهجها، في شفافيتها وقدراتها على إقامة خيط الوصل والوصال مع متلقيها، فيواجهك جدار لولبي سميك، لا يتحقق اختراقه إلا بتوقف هذه الكتابة عن شهوة الاختراق ونزوة الاجتياح من قبل الآخر.

إنها الكتابة التي لا تتأسس على أرضية فكرية أو موقف واضح، ولا تنفتح على أفق، ولا تفتح أفقا، ولا تؤسس لشيء،ولا تلتقط خيوط قضايا الإنسان وتغلطيها، ولا تتجرأ على التحليق في فضاء الكون، بل تبقى قابعة في تلافيف التجريد، فيبقى القارئ بدوره معلقا في فضاء التوق للكتابة بسحرها وبوحها، وظلالها وهواجسها، ودوالها ومدلولاتها وطاقتها المؤثرة لا المنفرة. فلا الذات هنا هي محور الكتابة ولا الآخر أيضا، ولا الكون الذي يجمعهما برحابته، فيأتي التنويع على عالم ينزف حول الشكل، ومستنزفا طاقاته هو ميسمها وقادرها. لترتسم في شحوبها متخلية عن الرؤى والدلالات والقيم والأفكار،عابرة عن فيض التجربة إلى ما يحجبها، واقعة في ركام فوضى اللغة وهدم الجمال، نافسة بهجة البيان، وممزوجة بمصيرها، بنهاية فعلها والتفاعل معها.

هذه النهاية تنسحب مع استثناءات قليلة، على النتاج التسعيني برمته، المتلفع ببرقع حداثة الوهم، المستعير لحطامها الواقع أسيرا في قبضتها، وكأن تحريره من الوهم يصبح حلما نبحث عنه في أعماقه، فنكتشف سلسلة من الأغلال كبل نفسه بها ورابط في أوتاد هلوستها وأباطيلها، لا تؤشر إلا لنزوعه

المحموم نحو ابتلاع نفايات الغرب المفضية لاغترابه، واستهلاك نوع من الجيف كان أهلها قد أبنوها بالأصوات الجمهورية لرولان بارت، وليفي شترواس، ولوسيان غولدمان، وجاك دريدا وغيرهم ممن بعثوا برسائل العزاء عندما غابوا في حفل التأبين، ولكنهم وعدوا بحضور صلاة الغائب في قداس كتاباتهم، وهو ما أوفوا به.

في هذا الجو المأتمي الرهيب حيث آلة البلع والابتلاع، في أوج نشاطها نعثر على صاحب الروائع "اللاز" و"الزلزال" "العشق والموت في الزمن الحراشي"، "عرس بغل"، متلبسا بجرم التعولم والتبلعم، عندما سكت دهرا لينطق كفرا، منقلبا على نفسه، على ماضيه، على روائعه. منسلخا من جلده ومجريا عملية جراحية تجميلية على ضميره ووجدانه بأحدث التقنيات الغربية، فيتحول بومدين عملاق التحرير والتعمير وملهمه آثما، ويرحل من النقيض إلى النقيض في صياغة هواجسه الفوضوية وطوارئه العبثية، رابطا إياها بسياق إيديولوجي ليبرالي وأصولي منافق، ونفعي مكشوف، لا يحتمل التأويل. هو مؤشرا لعلاقة البداية والنهاية، ومأزق واقعية السبعينيات كلها بانحناءاتها المفجعة، فيعود الطاهر وطار إلى "وعيه" مع "الولي الطاهر الذي عاد إلى مقامه الزكي"[7]. وتعاوده المراهقة والصبابة والفراغ في "تجربة عشق" مشحونا بطاقة عمود كهربائي عديم الفعالية، ويتنكر لرفيقه يوسف سبتي، ولكن يوهم بتذكره في "الشمعة والدهاليز"ويمشي في جنازة صديقه عبد الحميد بن هدوقة متنكرا بعباءة التائب، لينتهي مستريحا في واجهته الثقافية الجديدة كفوضوي وتاجر ثقافي، لم يعد يؤمن إلا بالمال والأعمال وشهوة العطايا والهبات على حساب الجاحظ[8] الذي مات تعيسا تحت كوم من الكتب ليبعثه وطار اليوم حيا تحت كوم الاستغلال.

إنها التجربة الفجيعة وقد لبست لكل فصل رداءه، فلا تتمايز الأصوات بداخلها إلا بأقصى درجات التوتر والانعطاف نحو الاتجاه المعاكس، فيتفجر

الوعي الزائف في مدلولات جديدة للقيم والتاريخ تنكرا وهجرانا لدى عبد العالي رزاقي، أحمد حمدي، محمد زتيلي، أو بحثا عن حيز شامل للهجرة في الجغرافيا مثل أزراج عمر، أو الهجرة إلى النفس حفاضا على توازنها ونقائها: مبروكة نوال بوساحة، حسن بوساحة، سليمان جوادي، محمد الأخضر السائحي، محمد أبو القاسم خمار، محمد الأخضر عبد القادر السائحي، محمد بن رقطان، مصطفى نطور، إدريس بوذيبة، الطيب معاش، مصطفى الغماري...

بمحاذاة هذه المساحة تتراءى ملامح أخرى للصوت الأدبي الجزائري في أقصى درجات امتداداته، وعطائه وثباته، فيأتي نتاجه بوصفه رؤية إبداعية مشحونة بالمواقف، مقتربا من آفاقه ونقاط منطلقاته بمعزل عن حركة الاجتياح وإعصار الاختراق والخضوع، فيقيم للزمن الإبداعي حدوده وأبعاده، ويخوض تجربة الصمود من موقع التواصل مع جذوره وقيمه، وقناعاته، والدأب على التطور في حركة متناسقة مع معطيات ذاته، ومع الحركة الأدبية الطليعية بنسقها الإنساني، لا ليخدم الإنسان ويشارك في صنع التاريخ، والحيلولة دون نهايته. متحديا شريعة مملكة الحوت وفكي"البلعمة" برؤية صياغة جديدة للعالم، هي وعاء تقدمه وتحرره وسطوعه في وجه بؤس عولمته. غنها أسماء من طينة رشيد بوجدرة، واسيني الأعرج، مرزاق بقطاش، الحبيب السائح، عز الدين ميهوبي، عبد الله حمادي،جيلالي خلاص وغيرها من الشموع التي لازالت تضيء هذه العتمة، وتسهم في صناعة إشراقة المشهد الأدبي الجزائري في إطاره الكوني والإنساني، الذي سيبقى يبشر بالولادات والبزوغ والسطوع، رغم كثافة هذا الليل البهيم.

هوامش:

[1] – Albert Duhamas :Mondialisation à l'américaine ,éd ,Lib,Paris,P :6.

[2] – Paul shankerbisky :Le malheur du mondde demain, ed ,Damix,Paris2001,P :96

[3] – Pascale De la Bossé : Mondialisation et culture, Paris 2000 P :17.

[4] – Ibid, P : 128.

[5]– انظر: شعر المقاومة الجزائرية، صالح خرفي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، د.ت، ص:15ومايليها

[6] – Voir jean Déjeux, Dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française, éd, Karthala, Paris

[7]– عنوان الرواية الأصلي هو " الولي الطاهر يعود إلى مكانه الزكي "

[8]– تعسفا نسب إليه الطاهر وطار الجمعية الثقافية التي أسسها مع بعض المثقفين تحت شعار "لا إكراه في الرأي" ليكرههم على الانسحاب منها بسبب تقلباته الغريبة، متفردا بها وبمقرها التابع للدولة، محولا إياه للأسف إلي مرتع لثقافة العولمة أو الثقافة التجارية الخاضعة لمبدأ العرض والطلب.